مجموع من رسائل السيوطي

الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

المتوفى ٩١١ هـ

يحتوي على الرسائل التالية

١ ـ نزول الرحمة في التحدث بالنعمة.

٢ ـ القول الأشبه في حديث "من عرف نفسه فقد عرف ربه".

٣ ـ أعذب المناهل في حديث "من قال أنا عالم فهو جاهل".

٤ ـ إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب.

٥ ـ إتحاف الفرقة برفو الخرقة.

٦ ـ طوق الحمامة.

٧ ـ الإغضاء عند دعاء الأعضاء.

٨ ـ الأجر الجزل في الغزل.

٩ ـ النضرة في أحاديث الماء والرياض والخضرة.

رسائل السيوطي

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

تحقيق وتعليق
أبي الفضل بدر بن عبد الإله العمراني الطنجي

الإمام السيوطي
مجموع من رسائل السيوطي
دار الكتب العلمية

القول الأَشْبَه

في حديث

«من عَرَفَ نَفْسَه فقد عَرَفَ رَبَّه»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد، فقد كثر السؤال عن معنى الحديث الذي اشتهر على الألسنة: من عرف نفسه فقد عرف ربه. وربما فهم منه معنى لا صحة له، وربما نسب إلى قوم أكابر فرقمت في هذه الكراسة ما يبين الحال، ويزيل الإشكال، وفيه مقالان:

المقال الأول: أن هذا الحديث ليس بصحيح، وقد سئل عنه النووي في فتاويه[1] فقال: إنه ليس بثابت، وقال ابن تيمية[2]: موضوع، وقال الزركشي في الأحاديث المشتهرة[3]: ذكر ابن السمعاني أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي[4].

المقال الثاني: في معناه، قال النووي في فتاويه: معناه من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله والعبودية له، عرف ربه بالقوة والربوبية والكمال المطلق والصفات العلى[5].

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن: سمعت شيخنا أبا العباس المرسي يقول: في هذا الحديث تأويلان:

---

(1) المنثورات ص: 275 .

(2) قال في مجموع الفتاوى 16/ 349: وبعض الناس يروي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا يعرف له إسناد، ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة -إن صح-: يا إنسان، اعرف نفسك، تعرف ربك . وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحا أو فاسدا لا يمكن الاحتجاج بلفظه، فإنه لم يثبت عن قائل معصوم...

(3) التذكرة باب الزهد رقم: 9 .

(4) وقال الفيروزأبادي في "الرد على المعترضين على الشيخ ابن عربي" (ق37/ 2): ليس من الأحاديث النبوية، على أن أكثر الناس يجعلونه حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يصح أصلا، وإنما يروى في الإسرائيليات: يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك. انظر الضعيفة رقم: 66 .

(5) ثم قال: ومن عرف ربه بذلك كل لسانه عن بلوغ حقيقة شكره والثناء عليه، كما ثبت في صحيح مسلم [476] وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك" . والله أعلم .

أحدهما: أن من عرف نفسه بذلها وعجزها وفقرها وعرف الله بعزه وقدرته وغناه، فتكون معرفة النفس أولا ثم معرفة الله من بعد.

والثاني: أن من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين، والثاني حال المجذوبين .

وقال أبو طالب المكي في قوت القلوب: معناه إذا عرفت صفات نفسك في معاملة الخلق، وأنك تكره الاعتراض عليك في أفعالك وأن يعاب عليك ما تصنعه، عرفت منها صفات خالقك، وأنه يكره ذلك، فارض بقضائه، وعامله بما تحب أن تعامل به .

وقال الشيخ عز الدين: قد ظهر لي من سر هذا الحديث ما يجب كشفه، ويستحسن وصفه، وهو أن الله سبحانه وتعالى وضع هذه الروح الروحانية، في هذه الجثة الجثمانية، لطيفة لاهوتية، موضوعة في كيفية ناسوتية، دالة على وحدانيته وربانيته .

ووجه الاستدلال بذلك من عشرة أوجه:

الأول: أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقرا إلى مدبر ومحرك وهذه الروح مدبرة ومحركة علمنا أن هذا العالم لا بد له من مدبر ومحرك .

الوجه الثاني: لما كان مدبر الهيكل واحدا، وهو الروح، علمنا أن مدبر هذا العالم واحدا لا شريك له في تدبيره وتقديره، ولا جائز له أن يكون له شريك في ملكه، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له، علمنا أنه مريد لما هو كائن في كونه، لا يتحرك متحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه .

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها به

(1) الأنبياء: 22 .
(2) الإسراء: 42، 43 .
(3) المؤمنون: 91 .

لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء، علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء ؛ بل هو قريب إلى كل شيء في الجسد، علمنا أنه أقرب إلى كل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد من شيء، لا بمعنى قرب المسافة؛ لأنه منزه عن ذلك .

الوجه السادس: لما كان الروح موجودا قبل وجود الجسد، ويكون موجودا بعد عدم الجسد، علمنا أنه سبحانه وتعالى موجود قبل كون خلقه، ويكون موجودا بعد فقد خلقه، ما زال ولا يزال، وتقدس عن الزوال .

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعرف له كيفية، علمنا أنه مقدس عن الكيفية .

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له أينية علمنا أنه منزه عن الكيفية والأينية، فلا يوصف بأين ولا كيف، بل الروح موجودة في كل الجسد، ما خلا منه مكان، وتنزه عن المكان والزمان .

الوجه التاسع: لما كان الروح لا يحس ولا يمس، علمنا أنه منزه عن الحس والجس واللمس والمس .

فهذا معنى قوله: "من عرف نفسه عرف ربه" . فطوبى لمن عرف، وبذنبه اعترف.

وفي هذا الحديث تفسير آخر، وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك، فمن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء، ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه كما هي عرف ربه كما هو .

واعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إياك كما إياك، فكيف لك سبيل إلى معرفة إياه كما إياه ؟ فكأنه في قوله: "من عرف نفسه عرف ربه" علق المستحيل على مستحيل، لأنه مستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها وكميتها، فإنك إذا كنت لا تطيق بأن تصف نفسك التي هي بين جنبيك بكيفية وأينية ولا بسجية ولا هيكلية ولا هي بمرئية، فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين، وهو مقدس عن الكيف والأين ؟ وفي ذلك أقول:

قل لمن يفهم عني ما أقول قصر ... القول فذا شرح يطول

هو سر غامض من دونه ... ضربت والله أعناق الفحول

أنت لا تعرف إياك ولم ... تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت ... فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها ... هل تراها فترى كيف تجول
هذه الأنفاس هل تحصرها ... لا ولا تدري متى منك تزول
أين منك العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لي يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه ... كيف يجري منك أم كيف تبول
فإذا كانت طواياك التي ... بين جنبيك كذا فيها خلول
كيف تدري من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف تجلى الله أم كيف يرى ... فلعمري ليس ذا إلا فضول
هو لا كيف ولا أين له ... وهو في كل النواحي لا يزول
جل ذاتا وصفات وسما ... وتعالى قدره عما أقول

وقال القونوي في شرح التعرف: ذكر بعضهم في هذا الحديث أنه من باب التعليق بما لا يكون، وذلك أن معرفة النفس قد سد الشارع بابها لقوله: (قل الروح من أمر ربي) فنبه بذلك على أن الإنسان إذا عجز عن إدراك نفسه التي هي من جملة المخلوقات، وهي أقرب الأشياء إليه، فهو عن معرفة خالقه أعجز؛ بل هو عاجز عن إدراك حقيقة قوله وحواسه كسمعه وبصره وشمه وكلامه وغير ذلك، فإن للناس في كل منها اختلافات ومذاهب لا يحصل الناظر منها على طائل، كاختلافهم في أن الإبصار بالانطباع أو بخروج الشعاع، وأن الشم بتكيف الهواء وبانبثات الأجزاء من ذي الرائحة، إلى غير ذلك من الاختلافات المشهورة، فإذا كان الحال في هذه الأشياء الظاهرة التي يلابسها الإنسان على هذا المنوال، فكيف يكون الحال في معرفة الكبير المتعال ؟ وقد تحصل مما سقناه في هذا معنى هذا الأثر أقوال، والله أعلم[1].

كلام نفيس لابن القيم في معنى هذا القول

قال رحمه الله[2]: المشهد الحادي عشر، وهو مشهد العجز والضعف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لا قوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة، تقلبها الرياح يمينا وشمالا، ويشهد نفسه

(1) إلى هنا انتهت رسالة السيوطي .
(2) في مدارج السالكين 1/ 427-428 .

كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح، وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة، وتخفضها تارة أخرى، تجري عليه أحكام القدر، وهو كالآلة طريحا بين يدي وليه، ملقى ببابه، واضعا خده على ثرى أعتابه، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله ؛ كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع، لا يردها عنها إلا الراعي، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء، وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن، فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم ؛ بل هو نصيب من ظفر به منهم، وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقا ويعرف ربه، وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور "من عرف نفسه عرف ربه" وليس هذا حديثا عن رسول الله ؛ إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضا يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك .وفيه ثلاث تأويلات:

أحدهما: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز، ومن عرفها بالجهل عرف ربه بالعلم، فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق والحمد والثناء والمجد والغنى، والعبد فقير ناقص محتاج، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه، ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله .

التأويل الثاني: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به، فمعطي الكمال أحق بالكمال، فكيف يكون العبد حيا متكلما سميعا بصيرا مريدا عالما يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه، فهذا من أعظم المحال ؛ بل من جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما، ومن جعله حيا عليما سميعا بصيرا فاعلا قادرا أولى أن يكون كذلك . فالتأويل الأول من باب الضد، وهذا من باب الأولوية .

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي، أي: كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك، فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته، والمقصود أن هذا المشهد يعرف العبد أنه عاجز ضعيف، فتزول عنه رعونات الدعاوى والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف .